الامام الغزالي

مدرس المدرسة النظامية ببغداد

حسين أمين

المدرسة النظامية ، مدرسة اسلامية ، شيدها الوزير نظام الملك ، الحسن ابن علي بن اسحق بن العباس الطوس سنة ٤٥٩ هـ ببغداد فى الجانب الشرقى منها ، والحقيقة ان نظام الملك هو من الاوائل الذين فكروا فى تأسيس المدارس ، وقد استغرق بناء المدرسة زهاء السنتين وكانت من أعظم المدارس وافخمها قبل تأسيس المدرسة المستنصرية ، وقد انشئت هذه المدرسة لتدريس الفقه الشافعى خصيصى ، وشرط الواقف « ان يكون المدرس بها والواعظ ومتولى الكتب من الشافعية أصلا وفرعا[1] . واستكملت المدرسة النظامية شروط المدرسة كما كان عصر نظام الملك هو عصر ازدهار المدارس التى اخذت على عاتقها تنظيم الدرس والبحث العلميين ، يقول الاستاذ ارنست دايز : ان اهمية عمل نظام الملك ترجع الى كونه بداية عصر جديد من الازدهار للمدرسة اذ اصبح السلطان ورجال الطبقة العالية مولعين بتأسيس المدارس كما ان تكوين المدرسة كما انشأها نظام الملك وماجعله من أقسام داخلية للطلاب أصبح فيما بعد نموذجا يحتذى به فى سائر المدارس التى أنشئت فى الازمان التالية[2] .

وقد شيد نظام الملك عدة مدارس عرفت بالمدارس النظامية ، منها نظامية اصفهان ومن مدرسيها المشهورين ، ابو بكر محمد بن ثابت الحجندى

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ٦٦ .

(2) Encyclopeadia of Islam: Art Masjid p. 354.

المتوفى سنة ٤٨٣ هـ ، ونظامية نيسابور ومن مدرسيها المشهورين ، امام الحرمين ابو المعالى عبدالملك الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨ هـ ، وكان هذا شيخا فاضلا ومدرسا نجيبا وكانت وفاته صدمة لطلابه الذين من شدة حزنهم وتأثرهم كسروا منبر الجامع الذى كان يلقى منه عظاته ، وحطم تلامذته البالغ عددهم ٤٠٠ تلميذ ، أقلامهم ومحابرهم وانقطعوا عن الدراسة سنة كاملة ، ومن طلبته المشهورين الامام الغزالى .

ومن المدارس الاخرى التى أمر بتشييدها نظام الملك ، المدرسة النظامية بهراة ، والمدرسة النظامية فى الموصل ، الا ان اشهر تلك المدارس النظامية هى نظامية بغداد ، التى استقبلت طلاب العلم وتولى التدريس فيها أعيان المدرسين واكابر علماء الشافعية وفقائهم ومن أشهرهم الشيخ أبو اسحق الشيرازى[٣] ، وأبو بكر الشاشى[٤] ، وأبو نصر بن الصباغ[٥] ، والكيا الهراسى[٦] ، وغيرهم من كبار الاساتذة وأعلام الفقه والادب ، ولعل اشهر من درس فى تلك المدرسة حجة الاسلام أبو حامد الغزالى[٧] .

والامام الغزالى شخصية علمية عالمية ذات مكانة سامية فى الشرق والغرب ، وكان خير المدرس الناجح والمربى الناصح ، وهو محمد بن محمد ابن محمد بن أحمد الطوسى ، ولد بطوس سنة ٤٥٠هـ وكان والده يغزل الصوف ويبيعه ، امتاز منذ طفولته بحدة الذكاء والفطنة ، قدم نيسابور

---

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٢٩ ، ابن خلكان ـ وفيات الاعيان ج ١ ص ٥ .

(٤) السبكى : طبقات الشافعية ج ٤ ص ٥٧ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٥٨٨ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٠٥ ، السبكى : طبقات الشافعية ج ٣ ص ٣٣٠ .

(٦) السبكى : طبقات الشافعية ج ٤ ص ٢٨١ ، العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ٨ .

(٧) سنضع جدولا بالمراجع فى آخر البحث .

ولازم امام الحرمين عبدالملك الجوينى ، وجد واجتهد حتى برع فى المذهب والخلاف والاصول والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة واحكم كل ذلك ، وصنف فى شتى المواضيع والعلوم ، وبعد وفاة الامام الجوينى التقى بالوزير نظام الملك فى احدى مجالسه العلمية ، وفى ذلك المجلس تناظر العلماء وساهم أبو حامد الغزالى فى تلك المناظرات فبان علمه وظهرت حجته بما أوتى من صدق الدليل وقوة الحجة وتركيز العبارة ، فاعترف له العلماء بالفضل والعلم ، وتلقاه الوزير نظام الملك بالتعظيم والاحترام وولاه تدريس المدرسة النظامية ببغداد •

ويبدو لي أن الامام الغزالى قد بلغ تلك الدرجة من العلم والرجاحة بالدراسة العميقة القائمة على تفهم العلم لحقيقته ، كما أنه ولج كل موضوع وعرج الى كل عالم وحصل من كل ذلك على حقائق علمية وآداب فاضلة وتجارب نافعة ، كانت خير عون على انجاحه وافلاحه ، فكان رحمه الله دؤوبا على البحث وتقصي الحقيقة كل ذلك كما بينا من أجل الوصول الى حقائق جديدة ، فلاحظ معى وهو يقول : (ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ وقد أنافت السن على الخمسين ، اقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور واتوغل فى كل مظلمة واتهجم على كل مشكلة ، واتقحم كل ورطة واتفحص عقيدة كل فرقة ، واكشف اسرار مذهب كل طائفة لاميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا الا وأحب ان اطلع على بطانته ولا ظاهريا الا واريد ان أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا الا وأتصدى الوقوف على كنه فلسفته ولا متكلما الا واجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومحاولته ، ولا صوفيا الا واحرص على العثور على سر صوفيته ولا متعبدا الا وأترصد مايرجع اليه حاصل عبارته ولازنديقا الا واتجسس وراءه للتنبه الى اسباب جرأته فى تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش الى درك الحقائق دأبي من اول أمرى وريعان شبابي ، غريزة وفطرة من الله وضعت فى جبلتى لا باختيارى وحيلتى) •

اصول العلم والكمال فى طريقة البحث فالانسان العالم الباحث عليه عند بحثه لمشكلة من المشكلات او مسألة من المسائل ان يدرسها من اصولها الرئيسة

هذه هى كلمة الامام الغزالى عن نفسه وهذا وأيم الحق لهو الغاية فى فيتحرى الاسباب ويحيط بجميع العوامل التى أدت الى حدوث تلك المشكلة وبعد دراستها وتحقيقها ومقابلتها ، يكون له الحق فى تقديم آرائه الخاصة المبنية على الدرس والبحث والتدقيق بصورة علمية صحيحة .

نشأ الامام الغزالى فى عصر مضطرب ، وكانت الخلافة العباسية قد آلت الى الضعف والانهيار ، والمجتمع الاسلامى قد ابتلى بانقسامات مذهبية ومنازعات جدلية ، وكثرت الافكار والنحل ، وقامت فى زمنه الحروب الصليبية ، كما أمتاز عصر الغزالى بازدهار الحركة المدرسية وكثرة العلماء ، وانتشر الصوفية وكان لهم أثر كبير فى العصر العباسى وقد سار الغزالى على طريقتهم وكان له فضل كبير فى تثبيت مركزهم ، كما ظهرت فى عصر الغزالى الفلسفة الغربية بفرقها المتعددة كالدهرية والطبيعية والآلهية كما صنفهم الامام الغزالى ، وقد هاجم الفلاسفة وألف فى الرد عليهم كتابه المشهور « تهافت الفلاسفة » وكان يعتقد أن الفلاسفة هم خطر على الدين لاستهانتهم بالشرع وحدوده وانهم احتقروا شعائر الدين ، وقد درس الغزالى الفلسفة ليقف على كنهها ولم يكن الذى حمله على دراستها مجرد شغف بالعلم بل كان يتطلع الى مخرج من الشكوك التى كان يثيرها عقله ، وذلك ليطمئن قلبه ويتذوق الحقيقة الكبرى ، ونتيجة دراسته للفلسفة ، انه خرج بمذهب مبتكر ، هو مذهب الشك ، وبذلك يكون الامام الغزالى قد سبق الفيلسوف هيوم بقرون عديدة .

ان العصر الذى عاشه الغزالى وما اصطرعت فيه من الافكار والآراء والفرق والنحل ، كان لتلك فى مجموعها أثرها فى دراسة وبحث وتوجيه الامام الغزالى وتقلباته الفكرية السريعة فى حياة التلميذ المجد ، النابه ، الى درجة الاستاذ الكبير ثم الى الامام حجة الاسلام ، زين الدين ، ثم ولى اكبر منصب للتدريس هو تدريس الفقه وعلم الكلام فى المدرسة النظامية

بغداد ، وكان لتلك الآراء والافكار والمعتقدات أيضا اثرها فى انقلابه الفكرى السريع بتركه التدريس ولزومه لحياة التنسك والزهد ثم انقطاعه عن العالم فى مدينته طوس ، كما كان لتلك ايضا آثارها فى ان يندفع الغزالى الى التأليف وتصنيف الكتب الشهيرة التى كان لها الأثر الكبير فى توجيه الناس فى ذلك العصر •

ان حياة الغزالى فى بغداد لها أهمية بالنسبة لآرائه وافكاره ، فقد كانت بغداد على عصره محط أنظار الناس ، وكانت تعج بالعلماء وتموج بالافكار والمعتقدات وكثرت فيها معاهد العلم • وصل الغزالى بغداد سنة ٤٨٤ هـ وله اربع وثلاثون سنة ، وبدأ التدرس فى النظامية وكثر طلابه ومستمعوه وكان القوم قد اعجبوا باخلاقه وعلمه وسعة اطلاعه ، وحضر مجلسه كبار العلماء والفقهاء ، منهم ابو الخطاب وابن عقيل وكانا من كبار رجال الحنابلة ، فاعجبتهم فصاحته وكثرة اطلاعه ، وكانت ايامه فى النظامية على مايبدو حافلة بالعلم زاخرة بطلبة الثقافة الذين كانوا يحيطون بالامام الغزالى يرتشفون منه العلم والأراء الطيبة والافكار الدينية التى كانت تفيض منه كالسيل ، فيها عظات وعبر ومنافع لهم •

وفى سنة ٤٨٨ هـ انقطع الامام الغزالى عن التدريس فى النظامية وترك بغداد متجها نحو الشام ، وأقام فى الشام سنتين وانعزل هناك واعتكف بها ثم رحل الى بيت المقدس وسكن مسجد قبة الصخرة ثم رغب فى الحج فأدى الفريضة وزار قبر الرسول (ص) ، وبعد أن اقام فى الحجاز مدة ، اخذه الحنين الى عائلته واطفاله ، وفى ذلك يقول الغزالى : (ثم جذبتنى الهمم ودعوات الاطفال الى الوطن فعاودته بعد ان كنت ابعد الخلق عن الرجوع اليه فأثرت العزلة به ايضا حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر ، وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش تغير فىّ وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة) •

واكمل الغزالى تطوافه فى البلاد الاسلامية فقد زار مصر ودخل القاهرة والاسكندرية واقام بهما مدة ، واثناء تطوافه فى البلاد انتج كتابه

الكبير ـ احياء علوم الدين ـ ويبدو أنه كان يلتمس فى كل خلوة طريق الصوفيه ، قال الغزالى فى ذلك : (انه انكشف لى فى أثناء هذه الخلوات امور لايمكن احصاءوها واستقصاءوها والقدر الذى اذكره لينتفع به انى علمت يقينا ان الصوفية هم السابقون لطريق الله تعالى ، خاصة وان سيرتهم أحسن السير وطريقتهم اصوب الطرق واخلاقهم ازكى الاخلاق ... وان جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة) .

قلنا ان الامام الغزالى حضر مجلس نظام الملك وعنده أكابر العلماء والفقهاء وفى ذلك المجلس تبارى الغزالى مع اولئك العلماء والفقهاء وناقشتهم فى آرائهم وافكارهم ولعمرى ان لنقاش الغزالى مع هوءلاء العلماء والفقهاء لدليل قاطع على أن الرجل كان شاكا فى آرائهم وهذا الشك لابد وأن يكون قد نما عند الغزالى قبل مدة طويلة ، وكان الغزالى يتحرى الحقيقة فى كل أمر ومشكلة ولا يعطى حكما فى أى قضية ومسألة ما لم يدرسها من جوانبها المتعددة ويقف على اسباب وقوعها وحدوثها وبيان آثارها ونتائجها ، وقد قال الغزالى فى ذلك : (وقد كان التعطش الى درك حقائق الامور دأبى من اول امرى وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله تعالى) . وهذا يظهر لنا بوضوح ما اعتادت عليه نفس الغزالى من البحث والتعلم ، فكان الرجل لايتقبل الشىء دون دراسته وبحثه ، دراسة استقصاء ودقة وتحرى ولايصدر حكما الا بعد فهم ذلك الموضوع فهما جيدا ، ومن هذا البحث الطويل والاستقصاء البعيد نشأت لدى الغزالى عادة الشك فى كل أمر ، على ان الغزالى كان لايدعو الى الشك بل كان ديدنه أن يصل من ذلك الشك الى عين اليقين . وكان الرجل يتعجب فى كل أمر لايعرف كنهه ، اسمعه يقول : (فلو قال قائل : لا ، بل الثلاثة اكثر من العشرة بدليل انى أقلب هذه العصا ثعبانا ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم اشك بسببه فى معرفتى ، ولم يحصل لى منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه ، فاما الشك فيما علمته فلا . ثم علمت ان كل ما لا اعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه ، هذا النوع من اليقين فهو علم

لاثقة به ولا امان معه ، وكل علم لا امان معه فليس بعلم يقين) .

ثم بدأ الغزالى يفتش عن العلوم ، وبدأ يشكك نفسه فى معرفة الكثير منها حتى قاده الشك اليقين بمعظمها ، ثم يصطدم الغزالى هنا وبدأ يشك فى اليقين ، ومن المعروف ان اليقين مبنى على الحس ، والحس لايصدق دائما ، قال الغزالى : (اقبلت بجد بليغ اتأمل فى المحسوسات والضروريات وانظر هل يمكننى ان اشكك نفسى ، فانتهى بي طول التشكيك الى ان لم تسمح لى نفسى بتسليم الامان فى المحسوسات ايضا) .

وهكذا صار الغزالى يشك فى اليقين ، ثم صار يشك فى المحسوسات ووثق بالعقليات ولكنه بدأ يشك فيها ايضا ، قال الغزالى: (فقالت المحسوسات بم تأمن ان تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بي ، فجاء حاكم العقل فكذبنى ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ، فلعل وراء ادراك العقل حاكما آخر) .

وهكذا خاض الغزالى صراعا عنيفا من الافكار ، عاد ووثق بالضروريات العقلية ولم يبين لنا كيف وثق بذلك بل يقول : (انه نور قذفه الله تعالى فى الصدر وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف) .

والغزالى كما يبدو لنا كثير الشك فى الناس وفى العلوم وكل ما يدور حوله ، وكثيرا ماوصله الشك الى علم اليقين ، فهو يقول فى ذلك : (ان الشكوك هى الموجبة للحق فمن لايشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال) ، وطبيعى ان هذا الشك جعل الغزالى يفكر فى كل امر يقع عليه نظره او يتلقاه سمعه ، فيأخذ منه تفكيرا وتمحيصا ، ولعمرى ان هذا لهو السر فى مطلب الرجل للوحده دائما والانزواء عن الناس كى يتفهم المسائل العديدة التى صادفته فى حياته بهدوء وصفاء وليخرج من دراستها بنتائج ملموسة وبذلك يزداد ثقة وطمأنينة . والذى اعتقده ان هذه الحالة هى من العوامل التى جعلت الغزالى يهجر بغداد ويعتزل التدريس وينزوى وحيدا بعيدا عن الناس .

ولاشك ان النظامية وهى ملأى من الطلاب العلم وكانت محط انظار

العلماء ، كما كانت بغداد موئل الجميع ومزحومة بتيارات الفكر المختلفة مشحونة بالمسائل والمشاكل ، وهذه الامور تثير الشك فى الغزالى وتستدعى منه الدرس والمناقشة ، فالجو فى بغداد كان محموما ، مرهقا ، كثير المسائل والمشاكل التى تتعب جسمه وفكره ، لذا فانه نشد الراحة وطلب الخروج من بغداد ، ونزعته فى الشك جعلته فى طليعة العلماء الذين اشتهروا فى هذا الباب • وكان الشك قد أدى به الى دراسة الفلسفة ، ولم يكن الذى دفعه على البحث فيها ودراستها مجرد شغف بالعلم بل كان يتطلع الى مخرج من الشكوك التى كان يثيرها عقله ، فينقب فى علومها وأصولها حتى يطمئن قلبه ويتذوق الحقيقة العليا ، وبعد دراسة مستفيضة خرج من دراسته الفلسفية بكتاب نفيس ذلك هو كتاب (تهافت الفلاسفة) الذى بحث فيه الخلاف القائم بين الدين والفلسفة وعالج مسائل هامة ، ويبدو ان هذا الكتاب قد فرغ الغزالى من تأليفه فى بغداد ايام اشتغاله مدرسا فى النظامية ، وقد اتخذ المنطق خير سلاح يهاجم به الفلاسفة الذين فى نظره اشد خطرا على الدين من غيرهم ، لما غلب على الناس من حب كتبهم وحسن الظن فى علومهم •

ان لعزلة الغزالى اهمية كبيرة فى حياته ، فقد عاش فى مرحلة الشك فترة يموج بتيارات الفكر المختلفة وخاض مفاهيم كل الفرق ودرس آراءهم ولمس اختلافهم وتصارعهم فخرج الرجل انسانا آخر يحمل عقلا مشحونا بتيارات مختلفة من الفكر والآراء منها ماهو ضار فرده ردا علميا وأخرج معايبه واوضح مساوئه ، ومنها النافع فاظهر محاسنه وبين محامده ، وكان الغزالى يعيش فى ذلك الصراع بين عقله ونفسه وذلك هو الذى دفعه الى التردد وهذا هو الذى دفعه الى الشك ، والشك هو الذى ادى به الى البحث والاستقصاء الذى اوصله الى اليقين •

ان الغزالى عاش فى بغداد من سنة ٤٨٤ الى سنة ٤٨٨ هـ والذى يجول فى خلدى أن الغزالى كان يحمل فكرة حسنة طيبة عن مقام الخلافة ذلك المقام الذى أحاطت به هالة من التقديس والتبجيل ، ووجود الغزالى فى بغداد معناه أن الغزالى صار قريبا من ذلك المقام الذى كان يعج بالترف

وينغمس فى النعيم واللهو وفى كل مالذ وطاب ، وكان الغـــزالى ميالا الى الزهد متأثرا بالصوفية منذ ان درس على استاذه الاول الصوفى يوســـف النساج ، واعتقد أنه أصيب برد فعل كبير ببغداد عما رأى وما سمع • كما كانت اخلاق الناس وما عليها من الفسق والفجور كانت لتلك الحالة اثرهـا السيء فى نفس الغزالى ضد مقام الخلافة وضد بعض الناس من اتخـــذوا الفسق والفجور ديدنهم ، تلك كانت من العوامل التى سببت نفرته من بغداد وطلبه الرحيل عنها •

إن هناك سببا سياسيا ذكره بعض المؤرخين أن هناك صلة بين الغزالى وامير المغرب يوسف بن تاشفين ، وان تلك الصلة كانت بغير علم ورضـــا الخليفة ، وان الخليفة أخذ يوجس خيفة من تلك العلاقة ، فأخذ يحـــاول ابعاد الغزالى عن حضرته ويحول وجهه عنه ، وأحس الغزالى فى ذلـك وكان هذا من عوامل خروجه من بغداد وعزلته التدريس •

والذى اعتقده أن تأثر الرجل بالصوفية ومبادئها كان الدافع القوى فى اسباب تلك العزلة ، فقد اعتزل التدريس فى النظامية واعتزل الناس وأقام فى مسجد دمشق سالكا طريق الصوفية واصبح من شدة تأثره بهـــم واعجابه واخلاصه لهم يصفهم : (انهم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وان سيرتهم أحسن السير وطريقهم اصوب الطرق واخلاقهم ازكى الاخلاق)• وعاش فى حالة زهد وتقشف ولم يعد ذلك الغزالى الذى ينشد الرفعـــة والتقدم ، وفى تلك الحالة وجد على مايبدو راحة ا لضمير وقرار الوجدان •

ولايفوتنا ان الغزالى كان متزوجا وله اطفال ، والظاهر انه كان يعيشـــ فى بغداد وحيدا تاركا عياله فى طوس وهذا الامر لابد وان يوءخذ بنظـــر الاعتبار ، اذ ان الانسان كثيرا ما يفكر فى أهله خاصة أطفاله ، البعيد عنهم ، وبعض الناس لايقوون على مفارقة ازواجهم وفلذات اكبادهم ، ومن يدرى فقد يكون هذا العامل من العوامل التى دفعته الى عزلة التدريس والخروج الى الشام ثم فلسطين ثم الرجوع الى بلده طوس • وكان الغزالى ذا نفســ عالية كريمة وكان يعتقد ان الحب والاحترام والتبجيل لله عز وجل لاغـير ،

والسلام على من يستحق السلام وعدم الاتصال بالسلطان والامـــراء ، لان مخالطتهم برأى الغزالى آفة عظيمة ، فهو يقول فى كتابه ، ايها الولـد ، : (ألا تخـالط الامراء والسلاطين ولا تراهم ، لان رؤيتهـم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة) • وكان يعتقد بان هدايا السلاطين ولو كانت مـــن الحلال الا انها تولد المداهنة والرياء ، ومعنى ذلك مراعاة جانبهم والموافقـة فى ظلمهم وهذا معناه فساد فى الدين ، وكان يكره مدح السلطان ويعتقـــد ان الله يغضب اذا مدح الفاسق والظالم •

ومما لاشك فيه اننا نجد بين سطور كلام الامام الغـزالى الواردة فى كتابه (ايها الولد) معانى بعيدة تصور فكرة الرجل عن العصر الذى هـــو فيه ، والانسان انما يتأثر بعصره ويتأثر بما يرى فى مجتمعه من عدل وجور وصلاح وشر ، فالغزالى طبعا متأثر بالوضع القائم وقتذاك عندما يقول : ـ (دع عنك مدحهم وثناءهم لان الله يغضب اذا مدح الفاسق والظالم) وهـو يقول ايضا : (ألا تقبل شيئا من عطاء الامراء وهداياهم وان علمت انها مـن الحلال لان الطمع منهم يفسد الدين لانه يولد المداهنة ومراعاة جانبهـــم والموافقة فى ظلمهم) •

هذه تعطينا صورة عما يجول فى فكر الغزالى ، صـــدى لما يدور فى خلده وماهو مستقر فى قلبه ، فكان يعتقد ان السلطان ظالم وان مجالسة السلاطين آفة وكل من يتصل بهم ويتقبل منهم المال والهدايا انما يراعيهم فى ظلمهـم وجورهم ، والغزالى المجاهد الكبير ، الداعى الى الله سبحانه عز وجل ، كان يأبى ان يأخذ المال ويراعى هوءلاء الظالمين •

وقد مل الامام الغزالى المناظرة فى بغداد لان الانسان نتيجة مناظرتـه مع الناس يتولد عليه الحقد والحسد ، كما انه يسمع كلاما لايرتضيه أو انـه يتقابل مع أناس تمجهم نفسه ولايرغب الصلة بهم ، لانهم لايعتقدون برأيـه ويخالفونه افكاره ، يقول الغزالى : (لاتناظر احدا فى مسألة ما اســتطعت لأن فيها آفات كثيرة ، فأثمها اكثر من نفعها ، اذ هى منبع كل خلق ذميـــم كالرياء والحسد والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها » ، « فبعض الناس يســأل

عن حسد وبغض فكلما تجيبه باحسن الجواب وافصحه واوضحه فلا يزيد له ذلك بغضا وعداوة وحسدا ، فالطريق ألا تشتغل بجوابه فقد قيل :ـ

كل العـــداوة قد ترجى ازالتها الا عداوة من عاداك عن حسـد

وهناك الحمقى الذين يطلبون العلم زمنا قليلا ويتعلمون شيئا من العلم العقلى والشرعى ويعترضون من حماقتهم على العالم الكبير الذى مضى عمره فى العلوم العقلية والشرعية وهوءلاء الحمقى لايعلمون ويظنون ان ما اشكل عليهم هو ايضا مشكل على العالم الكبير ، قال عيسى (ع) انى ما عجزت عن احياء الموتى وقد عجزت عن معالجة الاحمق) .

فالمناظرة برأى الغزالى لاتعود بالخير على العالم بل نتيجتها الحسـد والبغضاء والعداوة ، ووقوع الاستاذ فى جماعة من الحمقى والجهلاء الذين لاتفيد فيهم المجادلة والمناقشة لسوء فهمهم وقلة ادراكهم ، كما لاننسى او نتجاهل وجود بعض اصحاب المبادىء المتطرفة ومن اصحاب المذاهب مـن الذين كانوا يحضرون مجلس الغزالى فيمطرونه بالاسئلة الكثيرة وقد يكون بعضها محرجا ، وبصفته العلمية لابد وان يجيب على تلك الاسئلة حسـب ارائه ومعتقداته اما خيرا او غير ذلك ، وبذلك كثر اعداوءه ومناوءوه بالاضافة الى ان الغزالى فى اخريات ايامه مال نهائيا الى حياة التصوف والعزلة وكان بهذا يكره الاجتماع بالناس والاتصال بهم .

يعتبر الغزالى من الذين لهم التجارب النافعة فى حقل التربية والتعليم وان اراء الامام انما هى مستوحاة من تجارب عملية وخبرات واقعية ، فالرجل كان متزوجا وله اطفال ، يشرف على تربيتهم ، كما كان مدرسا لعدد كبير من الطلبة ، فلهذا كانت للامام الغزالى آراء جليلة ، هذه الآراء التى تبين واجبات الوالدين تجاه طفلهما كما توضح واجبات المتعلم والمعلم ، ونلمس فى تلك الاراء العامل الدينى واضحا كما يبرز الجانب الصوفى ، وعنده الغاية من العلم بلوغ النفس كمالها لتسعد بكمالها مبتهجة بمالها من البهاء والجمال ، والحق ان آراء الغزالى فى التربية لآراء جليلة كبيرة الفائدة سنذكر بعض

تلك الآراء ونمعن النظر فيها ومدى اهميتها فى حقل التربية خصوصا فى اصول تربية الطفل ، يقول الغزالى :-

١ - ان توءدب اخلاق الولد •
٢ - ان يحفظ من قرناء السوء •
٣ - ان لايعود التنعم ولا يحبب اليه الزينة واسباب الرفاهية •
٤ - ان لايستعمل فى حضانته وارضاعه الا امرأة صالحة متدينة •
٥ - ان يحبب اليه من الثياب البيض دون الملون والابريسم •
٦ - ان يمنع من النوم نهارا فانه يورث الكسل •
٧ - ان يعلم الولد آداب الأكل •
٨ - ان يكرم الولد ويحمد على ماجاء من الجميل ويتغافل عما جاء به من القبيح •
٩ - ان يشغل فى المكتب فيتعلم القرآن واحاديث الاخيار وحكايات الابرار •
١٠ - ان يعود الخشونة فى المفرش والملبس والمطعم •
١١ - يعود ان لايكشف اطرافه ولايسرع فى المشى ولايرخى يديه •
١٢ - يمنع من ان يفتخر على اقرانه بشىء يملكه والده •
١٣ - اذا ضربه المعلم ان لايكثر من الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد •
١٤ . وينبغى ان يوءذن له بعد الانصراف من الكتاب ان يلعب لعبا جميلا فيستريح اليه من تعب المكتب •

هذه بعض آراء الغزالى فى تنشئة الصبيان وتعليمهم ، ونجد تأثير العامل الدينى واضحا كما نرى أثر عقلية القرون الوسطى بارزا ، وقد وفق فى بعض ارائه التى تدل على تفهمه للطبيعة الانسانية ، ففى الفقرة (١٢) نجده يوءكد بعدم السماح للطفل او تعويده بان يتفاخر على اقرانه بشىء يملكه والده لان ذلك يوءدى بالطفل الى المكابرة وهو امر مذموم ، كما توءثر فى نفسية الاطفال الآخرين الذين حرموا من ذلك الشىء الذى امتلكه والد

الطفل المفاخر • ونجد الغزالى فى الفقرة (١٤) يهتم بناحيـــة التنفيـــس عن تعب الطفل بعد الدرس فاوصى بان يلعب لعبا جميلا كى يستريح من تعب المكتب وهذا ماتوصى به جميع مدارس التربية الحديثة • كما اوصـــى الغزالى بتشجيع الطفل على جميل الاعمال وحميد الصفات وطالب بغض النظر عما يجىء به الطفل من عمل قبيح ، ذلك لأن الطفل عندما يقوم بذلك العمـــل انمـــا يقـــوم به دون قصـــد ، واوصى بان لا يعـــاقب أو يوبخ لتأثير ذلك فى نفسية الطفـــل ، ويوصى أيضـــا باســـداء النصح وتوضيح مساوىء واضرار ذلك العمل ، الى جانب ذلك نجد ان الغزالى يهتم ويوصى بتعود النشىء على الخشونة ومن يدرى فقد يكون متأثرا بالنظم اليونانيـــــة (الاسبارطية) والتى تهتم بتعويد الطفل على الخشونة •

وللغزالى آراء نفيسة فيما يجب ان يقوم ويتحلى به المتعلم ، وفى تلك الآراء يؤكد على الجانب الاخلاقى فى التوجيه ، وطالب بالطاعة والخوض فى كل فن من الفنون واستيفاء مافى ذلك الفن من فوائد • كما اوص بان يقتدى المتعلم باخلاق استاذه والاصغاء الى مايلقنه من علوم وأداب ، والغزالى عـــنده غاية التعلم بلوغ النفس كما لها وتجميل نفسه بالفضيلة وكريم الصفات •

وللامام الغزالى نصائح جليلة للمعلم المرشد مستمدة من تجاربه الطويلة وخبراته العديدة ، ولو تفحصنا تلك النصائح ولوجدناها مستوحاة من صميم الواقع ودعوة صادقة منه للمرشدين فى بذل أقصى الجهود لنفع المتعلمين ، فاوصى بان يكون المرشد بارا بطلابه وان يكون صادقا معهم فى تعليمه وان لا يبتغى أجراً من وراء ذلك وينصح المعلم أن يعطى طلابه ما يعلم ولا يزيد عليه ما لا يبلغه عقله ، اما ما يتعلق بالعقوبات فقد اوصى الامام الغزالى : ان يزجر المتعلم عن سوء الاخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح وبطريق الرحمة لابطريقة التوبيخ ، ولاحظ الغزالى أهمية العقاب وتأثيره فى نفسية المتعلم ، لان التلميذ اذا شعر بالضغط والتوبيخ والمس فى كرامته أحســـس ببغض وكراهية لذلك الدرس ومعلمه ، وبذلك تفقد الغاية المتوخاة وهـــى حالة التشويق التى يجب ان توفر لطالب العلم كى يقبل على الدرس وبرغبة

اكيدة وشوق كبير • ونصح المعلم المرشد ان يلقى من العلم ما يقدر الطالب على فهمه ولايلقى على الطالب مالايقدر على فهمه ولايبلغه عقله ، كما طالب المعلم ان يكون قدوة حسنة للطالب فيكون عاملا بعلمه ولا يكذب قوله فعله ، فلا ينصح الطالب مثلا الى اجتناب كذا ، ويقترف هو نفسه ذلك كالذين (يأمرون الناس بالبر وينسون انفسهم) لأن ذلك يولد انطباعا سيئا للطالب عن مدرسه ومعلمه ، فينفقد الاحترام المطلوب •

لقد كان الغزالى مدرسة لها اثرها الكبير فى القرون الوسطى ، والحق ان شخصيته كانت شخصية القرن السادس الهجرى بلا منازع ، ومن اشد خصومه ومعارضيه ابن القيم الجوزية الذى نقد الغزالى فى عشرين مسألة كلها تدور حول اسراف الصوفية فى الابتعاد عن المظاهر الاسلامية ، وأهم تلك المسائل ، قول الغزالى : (ليس فى الامكان ابدع مما كان) فقد اعتبر ابن القيم الجوزية تلك الكلمة مايوهم العجز فى قدرة الله تعالى ، وقد فات الشيخ ابن القيم الجوزية ان الغزالى لا يقصد بها عجز البارى انما الذى قصده الغزالى انه ليس هناك ابدع من هذا العمل العظيم الذى صنعه الله عز وجل ، ذلك العمل الذى لو اجتمعت الانس والجن على ان يعملوا مثله لم يقدروا ولن يقدروا ابدا وليس هناك ابدع صنعا مما خلق الله وصنع •

امتاز الغزالى بأنه قرب الدين من العقل الاعتيادى وكشف دقائقه امام اذهان العامة فى حين ان الكثيرين من الفقهاء ورجال الدين فى عصره والعصور التى سبقته ساروا فى تفكيرهم على اساس من الغموض وفى بحار من المعميات والاسرار ، وهو حين قرب الدين من العقل الاعتيادى لم ينزل به بل رفع الايمان من حضيض السذاجة الى قوة التفكير العالى • وان من آثاره العظيمة فى النفس الانسانية أبحاثه الاخلاقية ونصائحه الجليلة خاصة تلك التى ضمنها كتابه النفيس (احياء علوم الدين) وقد نهج الغزالى فى بحث الاخلاق نهجا دينيا صرفا من حيث النظر والتقدير والناحية النفسية من التناول والوصف والتفسير • وقد درس الغزالى الفلسفة وشرحها وهاجم الفلاسفة ونقدهم نقدا علميا منطقيا وبذلك يكون قد حفظ العقائد الدينية

الاسلامية من الضعف ، والعقول من التبلبل والاضطراب .

وللامام الغزالى موءلفات كثيرة تدل على كبير اطلاعه وسعة علمه فى الفقه والمواعظ والفلسفة والتربية والاخلاقيات .

مات الغزالى وظل الشغل الشاغل للناس فى مدى القرون والاجيال ، ويعتبره الدكتور زويمر من عظماء الاسلام فيقول : (كل باحث فى تاريخ الاسلام يلتقى باربعة من اولئك الفطاحل وهم : محمد (ص) والبخارى والاشعرى والغزالى) .

وقد كتب عنه كثير من المؤرخين والباحثين منهم ماكدونالد ودى بور والاب بويج وماسينيون وجولدزيهر والدكتر زويمر ، وقد نال اعجاب المؤرخين المسلمين واشهر من كتب عنه ابن الجوزى وابن الاثير وابن خلكان والسبكى .

رحم الله الامام الغزالى ، فقد كان عالما بكل ماتحمل هذه الكلمة من معنى ، أوبا وعلما وتواضعا وطريقة حسنة ، كما كان صوفيا مسلما زاهدا متقشفا ومناضلا المبتدعة ، واستاذا فاضلا شهدت له المنابر علمه الزاخر وطريقته الجيدة فى الدرس والبحث .

توفى الغزالى فى الرابع عشر من جمادى الثانية سنة ٥٠٥ هـ ودفن بالقرب من قبر الشاعر الفارسى الفردوسى المشهور .

مراجع البحث

١ ـ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ
٢ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان
٣ ـ الخوانسارى : روضات الجنات
٤ ـ السبكى : طبقات الشافعية
٥ ـ العماد : شذرات الذهب
٦ ـ دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام
٧ ـ الدكتور زويمر : الغواص واللآلىء
٨ ـ حاجى خليفة : كشف الظنون
٩ ـ جرجى زيدان : تاريخ الآداب العربية
١٠ ـ أحمد أمين : ضحى الاسلام
١١ ـ أحمد حامد الصراف : عمر الخيام
١٢ ـ محمد غلاب : الفلسفة الشرقية
١٣ ـ محمد لطفى جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام
١٤ ـ زكى مبارك : الاخلاق عند الغزالى
١٥ ـ حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر
١٦ ـ الغزالى : احياء علوم الدين
المنقذ من الضلال
كيمياء السعادة
ايها الولد
تهافت الفلاسفة
القواعد العشرة
مقاصة الفلاسفة
١٧ ـ فان فلوتن : السيادة العربية
١٨ ـ لويس : العرب فى التاريخ
١٩ ـ عبدالدايم أبو العطا : تفكير الغزالى الفلسفى
٢٠ ـ سليمان دنيا : الحقيقة فى نظر الغزالى

21. Khuda Pukhsh: A short history of Islamic Civilization.
22. Thomas Arnold: The legacy of Islam.
23. Encyclopeadia of Islam: Art. AL-Ghazali.
24. Browne: A literary history of Persia.
25. O'leary: Arabic thought and its place in history.